الألوان في شعر محمود سامي البارودي
(دراسة وصفية تحليلية)

د. غالية المنتصر علي القمي ـ كلية التربية بالزاوية ـ جامعة الزاوية

الملخص :

يتناول هذا البحث دراســـة اللون في شعر محمود سامي البارودي ، ويهدف إلـى البحث عن الظواهر اللونية في شعره وإبرازها، وتفسير معانيها. ويُعدُّ هذا البحث دراسةً من الدراسات التـي تتنـاول ألفاظ الألوان وإيحاءاتها، فللون أهمية كبيرة في الحياة؛ فهو من أهـم ظواهر الطبيعة وأجملها، ومن الصعب تصور الحياة من حولنا من دون ألوان. إنَّه رمز للمشاعر المختلفة كالفرح والسرور، والألم والحزن، والغضب والانفعال، والقبول والرضا. كما أنَّه من أهم العناصر التي تسهم بقدر كبير في تُشـكِّل الصورة الفنية، لمَا يشـتمل عليه من الدلالات الفنية والنفسـية والدينية والاجتماعية والرمزية. وقد اعتمد البحث منهج الوصف والتحليل في تناول الألفاظ اللونية فـي شـعر البارودي، فجاء هذا البحث مشتملًا على مقدمة، وتمهيد وثمانية مباحث، وخاتمة تشمل أهـم النتـائج التـي توصَّل إليها البحث، بالإضافة إلى قائمة بالمصادر والمراجع في نهاية البحث. وقد اعتمد البارودي في استخدامه للون على ألوان معينة، وهي على الترتيب: الأبيض، الأسود، الأحمر، الأخضر، الأصفر، الأزرق، بالإضافة إلى بعض التشكيلات الأخرى كالتعدد اللوني، والتداخل والتضاد بين بعض الألوان.

الكلمات الدليلية : محمود سامي البارودي ـ الألوان.

Research Summary:

This research deals with the study of color in Mahmoud Sami AlBaroudi's poetry, and aims to search for and highlight the color phenomena in his poetry, and to explain their meanings. This research is one of the studies that deals with the words of colors and their connotations. Color is of great importance in life. It is one of the most important and most beautiful phenomena of nature, and it is difficult to imagine life around us without colors. It is a symbol of different feelings such as joy and pleasure, pain and sadness, anger and emotion, acceptance and contentment. It is also one of the most important elements that contribute greatly to the formation of the artistic

image, because of the connotations it contains artistic, psychological, religious, social and symbolic. The research adopted the method of description and analysis in dealing with the chromatic words in Al-Baroudi's poetry. This research included an introduction, a preface, eight sections, and a conclusion that includes the most important results reached by the research, in addition to a list of sources and references at the end of the research. Al-Baroudi relied in his use of color on certain colors, which are in order: white, black, red, green, yellow, blue, in addition to some other formations such as polychromatic, overlap and contrast between some colors.
Keywords: Mahmoud Sami Al-Baroudi - colors.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فلا شكَّ أنَّ ظهور الألوان قديم جدًا، فهو يواكب خلق الكون والإنسان بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وابداعه في خلقه.

وقد نظر الإنسان إلى ما يحيط به من الألوان، وفكر بأحاسيس ومشاعر مختلفة، منها المعجب والمتعجب، والمخيف، والعابر، وكل حسب تفكيره واعتقاده.

وقد مثَّلت الألوان صورًا جماليةً في الشعر العربي القديم، حيث كان الشاعر القديم يراقب الظواهر الكونية ويتأملها، ويصفها في صور بلاغية معبرة.

ثم تطور الشعر حتى صار اللون عاملًا مهمًا في تشكيل الصورة الشعرية الحديثة. ولافتًا لأنظار النقاد المحدثين في تقييم مختلف قصائد الشعراء.

وحري بالذكر أنَّ الإحساس باللون يختلف من شاعر إلى آخر ومن تجربة إلى أخرى؛ ممَّا يؤكد طابع الفردية والخصوصية في التوظيف اللوني. هذا بالإضافة إلى أنَّ إحساس الشاعر الواحد قد يتغير إزاء اللون نتيجةً لتقلبات حالته النفسية وعدم الثبات، وهذا يقتضي إمكانية التحول في دلالة اللون بحسب توظيف الشاعر له عبر إحساسه المتبدل بالألوان. فحضور اللون يتجلَّى في وصف الأشياء كما تبدو للشاعر لا كما هي في حقيقتها، ولونها ليس في أبعادها العادية، ولكن بنظمها في ألوان ويراها خلال الوسط الخيالي الذي صنعتــه الأحاسيس.

وانطلاقًا من الأهمية التي يتمتع بها اللون في تعميق دلالة النص وإثراء معانيه سنقف عند الألوان في شعر "محمود سامي البارودي" رائد الشعر العربي الحديث، وقد بحثت في أشعاره فوجدت العديد من الألفاظ اللونية المتناثرة، فأحسست في نفسي رغبةً جادةً

لدراسة هذا الموضوع، وهو بحث يتناول بالدرس والتحليل بعض الشواهد الشعرية المتضمنة لألوان مختلفة في ديوان الشاعر. وبالرَّغم من أنَّ هناك الكثير من المؤلفات التي تناولت أشعار البارودي بالدراسة والتحليل، فإنَّها لم تخصص لدراسة الألوان في هذا الشعر، فلا يزال شعره كنزًا يحتاج إلى البحث والتنقيب.

وتهدف الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

1 ـ استقراء حضور ألفاظ اللون في شعر محمود سامي البارودي.

2 ـ الكشف عن دلالة الألوان بأبعاد مختلفة.

وقد اتبعتِ الدراسة الحالية المنهج الوصفي التحليلي بعد جمع ما يخص موضوع الدراسة من ديوان البارودي.

لقد اتخذ البارودي اللون أداة للتعبير عن تجربته الشعورية، وتصوير مشاعره وأحاسيسه، والتي تمثل جزءً مهمًا في عملية الخلق والإبداع الفني.

وجاءتِ الدراسة في مقدمة وتمهيد وثمانية مباحث وخاتمة. جاء التمهيد للتعريف بالشاعر، ثم توضيح معنى اللون في اللغة والاصطلاح ثم عرض لآراء بعض النّقاد القدماء والمحدثين حول اللون وعلاقته بالشعر، كما فيه ذكر لأهم المصادر القديمة التي تناولت عنصر اللون بالدراسة، وجاءت عناوين المباحث كالتالي: أولًا اللون الأبيض، ثانيًا اللون الأسود، ثالثا اللون الأحمر، رابعا اللون الأخضر، خامسًا اللون الأصفر، سادسًا اللون الأزرق، سابعًا التعدد اللوني، ثامنًا التداخل والتضاد اللوني بين الأبيض والأسود. وكان حضور الألوان بنسب متفاوتة حسب تسلسلها في هيكل البحث.

ثم جاءتِ الخاتمة لتلخص أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة. وقد اعتمدتِ الدراسة على جملة المصادر والمراجع، فكان ديوان البارودي أساسًا لها، وبعض المعاجم اللغوية، إضافة إلى عدد من الدراسات والأبحاث التي ساعدت على إتمام هذا البحث.

التمهيد:

أولًا ـ التعريف بالشاعر:

محمود سامي (باشا) ابن حسني بك بن عبد الله البارودي المصري، أول ناهض بالشعر العربي من كبوته في عصرنا وأحد القادة الشجعان، سركسي الأصل، من سلالة المقام السيفي نوروز الأتابكي بمصر، لأسرة ذات عراقة اجتماعية وسياسية في تاريخ مصر المملوكي. ولد في القاهرة سنة 1255هـ / 1839م.[1]

توفي والده وهو في السابعة من العمر، وتركه يتيمًا، لكن اليتم لم يسلمه للضياع، فقد عاش برعاية بعض أقربائه، فتعهدته أمه بأفضل المؤدبين، والفقهاء، والعلماء، فنشأ نشأة

علمية رائدة، فلقنوه القرآن الكريم، وشيئًا من الفقه الإسلامي والشعر، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة 1854م وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان لقوة شخصيته، وصبره، وثبات جنانه، وذكائه أثر مباشر في نيله الرتب العسكرية، وتمتعه بثقة رؤسائه وقادته. (2)

وبعد أن تخرج في المدرسة الحربية لم يجد عملًا على الفور، فاشتغل بدراسة الشعر العربي في عصوره النظرة، فاتصل بالشعراء القدماء اتصالا شديدا، فظل ذلك يؤثر في مزاجه وخياله وعقله وقلبه، ثم سافر إلى الأستانة مقر الخلافة، والتحق بوزارة الخارجية، ونهل من معين مكتبتها الضخمة التي كانت تحوي نفائسها من كنوز التراث العربي في أزهى عصورها. (3)

وهناك " تعلم اللغتين التركية، والفارسية، وعكف على آدابهما، فاستظهر شعرهما وتغنى بأوزانه، ودعته سليقته الشاعرة إلى القول فقال بالتركية، وبالفارسية، كما قال من قبلُ بالعربية." (4)

عاد البارودي إلى مصر في الرابعة والعشرين من عمره، فألحقه الخديوي إسماعيل بحاشيته لما رأى فيه ما لم يره في غيره، فرقى في رتبه العسكرية إلى رتبة (القائم مقام) ثم إلى رتبة (أميرالاي)، ثم تسلم قيادة الثورة التي شبت في جزيرة أقريطش على الدولة العثمانية (5) ليكون بعد ذلك من قواد الحملتين المصريتين لمساعدة تركيا: الأولى في ثورة كريد سنة 1868م، والثانية في الحرب الروسية سنة 1877م، وتقلب في المناصب العسكرية التي انتهت به إلى رئاسة النظار. ثم استقال. ولكن عندما حدثت الثورة العرابية كان في مقدمة صفوف الثائرين، وعندما دخل الإنجليز القاهرة، قبض عليه وسجن وحكم بإعدامه، ثم أُبدل الحكم بالنفي إلى جزيرة سيلان (سريلانكة)، حيث أقام بها سبعة عشر عامًا أكثرها في كندي، تعلم الإنجليزية في خلالها، وترجم عنها كتبًا إلى العربية وكف بصره، وعفي عنه سنة 1900م، فعاد إلى مصر. (6)

" نزل البارودي إلى مصر، فكانت أوبته إليها عيدا نشر البِشْر في عالم الأدب كله. أصبح منزله ندوة الأدباء والشعراء وذوي المكانة، يأنسون إليه ويأنس إليهم، ويستمتعون بحديثه، ويرى في مجالستهم ما يأسو الجراح التي أدمت قلبه سنوات النفي بالطوال." (7)

قضى الشاعر في مصر أربع سنوات ذهب أثنائها ما تبقى من بصره، ثم توفي في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة 1904م، فكان يومًا حزينًا يوافق السادس من شهر شوال سنة 1322هـ. (8)

خلف البارودي ديوان شعر ضخمًا، ضم عددًا كبيرًا من القصائد؛ اشتملت على أغراض عديدة تدل على شاعرية عظيمة خصبة، ومقدرة هائلة على القول وابداع الكلام، كما تدل على استجابة بديهية تتفاعل مع كل الأحداث بالإضافة إلى مختارات من الشعر العباسي، في أربعة أجزاء. تُعدُّ معلمًا مهمًا من معالم الثقافة الأدبية التي احتازها البارودي.

شعر البارودي حياته، فهو في مجموعه صورة للعصر الذي عاش فيه، والبيئة التي أحاطت به. فقد قال البارودي أجود مما اختار، فبعث الشعر العربي خلقًا جديدًا، حيث نزع إلى تصوير الواقع في شعره كما هو في سلاسة وقوة دون اعتماده على محسنات اللفظ البديعية من جناس وطباق ونحوها، ودون إغراب في الخيال الشعري، وكلما ازددت إمعانًا في قراءته وتدقيقًا في معانيه، انفسحت لك آماده، فازددت به متاعًا، وبحفظه تعلقا. (9)

ثانيًا ـ اللون في اللغة والاصطلاح:

اللون في اللغة:

يعدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أقدم من ذكر اللون في المعجمات العربية، بقوله: " اللون معروف وجمعه ألوان والفعل التلوين والتلون " (10)، لكنه لم يعطه تعريفًا دقيقًا جامعًا مانعًا، لأنَّه لفظ عام وشائع لدى العلماء والباحثين، حيث قام بذكر الفعل والمصدر فأعطى عناية للفظ واشتقاقه وأهمل المعنى.

ثم تبعه علماء اللغة والمعجمين يقول صاحب (معجم مقاييس اللغة) معبرًا عن حد اللون بالسحنة: "اللام والواو والنون كلمة واحدة، هي سحنة الشيء، من ذلك اللَّون: لون شيء كالحمرة والسواد، ويقال تلون فلان: اختلفت أخلاقه، واللون من الجنس. " (11) وهذا الكلام يشير إلى تركيب اللون من عناصر عديدة في صورة واحدة.

ويقول ابن دريد: " لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره والجمع ألوان " (12) فيوضح مفهوم اللون من خلال المقارنة بين شيئين للتمييز بينهما.

وقد عرفه ابن سيده في المخصص: " لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، وقد تلون ولونته "(13)؛ فيدل اللون على تغير الهيئة والصورة، والتلون يعني تغير الصورة من شكل إلى آخر، ومن حال إلى أخرى.

ويرى ابن سيده أنَّ الألوان الأصلية أو المباشرة خمسة: وهي البياض، والسواد، والحمرة، والصفرة، والخضرة، أما الألوان الفرعية أو غير المباشرة فهي: ألوان مركبة من الألوان الأساسية بتسميات جديدة لم تعهدها المعاجم اللغوية السابقة، ومن

أمثلة ذلك: اللون الأزرق المركب من السواد والبياض، والزبيني المركب من السواد والحمرة، والنارنجي المركب من الحمرة والصفرة. (14)

ويُوضح الثعالبي مفهوم الألوان غير المباشرة من خلال عرضه اللون الأبيض وبيان درجاته مفرقا بين الألفاظ الدالة عليه صفة لإنسان مخالف وصفه عند الحيوان فيقول: "فكل درجة من البياض لفظ مخالف بمقدار درجة نصوعه عن الآخر ". (15)

وجاء في (لسان العرب) لابن منظور اللون: " هيئة كالسواد والحمرة، ولونته فتلون. ولون كل شيء: ما فَصل بينه وبين غيره، والجمع أَلوان، وقد تلون ولَون ولونه، والألوان: الضروب. واللون: النوع. وفلان متلون إذا كان لا يثبت علَى خلق واحد". (16)

فكأنَّه يقول: إنَّ اللون هو الشكل الخارجي للشيء، والذي يميزه عن غيره، وقد أعطى أمثلة بالسواد والحمرة، ثم يأتي بالفعل لون فيشير إلى أنَّ اللون يمكن أن يفصل عن الجسم، أو يستبدل بلون آخر، ثم يقلب الكلمة على عدة وجوه حتى يصل إلى لفظة متلون فينتقل بها من الحسي إلى المعنوي كرمز لسيء الخلق.

ويقول الجاحظ: " النشاص: السحاب الأبيض المرتفع بعضه فوق بعض وليس بمنبسط. " (17) معتمدًا على الرؤية العينية فلم يعط تعريفًا واضحًا للون.

أما مجدي وهبة وكامل المهندس فيعرفان اللون بقولهما: "اللون المحلي، الطابع المحلي وهو الوصف الحي الدقيق لبيئة مكانية معينة تدور فيها أحداث َسرد خاص بحيث تلعب عبقرية هذه البيئة دورًا هامًا في تصوير هذه الأحداث وصبغها باللون المحلى. " (18) وهو تعريف يعتمد على شكل المكان والبيئة وما يميزه عن باقي البيئات.

ويرى زين الخويسكي: أنَّ " اللون صفة الشيء وهيئته من البياض والسواد والحمرة وغير ذلك، الجمع ألوان، والملونون من الناس من هم من غير الجنس الأبيض كالسود والهنود، رجل ملون: غير أبيض، ولون معتدل: لون بين الفاتح والغامق. " (19)

وهذا التعريف قريب من تعريف ابن منظور، حيث فسَّر اللون بالشكل الخارجي للشيء، وضرب أمثلة كالبياض والسواد والحمرة، ويأتي بجمع اللون، ثم يدخله في الجانب الإنساني، ويعطي مثالًا بالرجل الملون، ثم يبين هيئة اللون المعتدل.

نُلاحظ من خلال العرض السابق تقارب المفاهيم والدلالات اللغوية للفظ اللون في المعاجم اللغوية العربية القديمة والحديثة، حيث ظل المعنى يدور في أنه هيئة وضرب.

اللون في الاصطلاح:

شغل مصطلح اللون منذ القدم الفلاسفة والفنانين التشكيليين، وعلماء الطبيعة والفيزياء، حيث تحدثت عنه الكثير من الموسوعات والمعاجم تحت راية التطور العلمي. وفكرة النظر إلى الألوان من خلال النحت والتصوير قديمة جدًا تعود إلى تاريخ معرفة الإنسان لهذه الفنون، ومن أهم الآراء التي تعرضت لمصطلح اللون: رأي الكندي الذي يقول فيه: " أمَّا اللون فكيفية محسة للبصر، بذاتها، وحده، أعني أنَّها للبصر وحده لا لغيره من الحواس بلا توسط محس غيرها، كالشكل المحسوس باللون إذ هو نهاية اللون"، [20] وهذا يعني أنَّ اللون كيفية خاصة بحاسة البصر وحدها دون غيرها.

أما الفارابي فيقول: " فإنَّ البصر هو قوة وهيئة ما في مادة، وهو من قبل أن يبصر فيه بصره بالقوة، والألوان من قبل أن تبصر مبصرة مرئية بالقوة، وليس في جوهر القوة الباصرة التي في العين كفاية في أن تبصر بصرا بالفعل. ولا في جوهر الألوان في أن تصير مرئية مبصرة بالفعل، فإن الشمس تعطي البصر ضوءًا يضاء به وتعطي الألوان ضوءاً تضاء بها، فيصير البصر بالضوء الذي استفاده من الشمس مبصرًا بالفعل، بصيرا بالفعل، وتصير الألوان بذلك للضوء مبصرة مرئية بالفعل بعد أن كانت مرئية بالقوة. " [21]

إنه إحساس ينتج عن تأثير موجات مغناطيسية ذات أطوال موجية معينة (في المدى الطيفي المرئي) على الخلايا الحسية الموجودة على شبكة عين الإنسان، التي تحولها إلى الإحساس اللوني، فالمصدر الأساسي للألوان هو أشعة الضوء المرئي، أي الموجات الكهرومغناطيسية ذات الأطوال الموجية. " [22]

وفي الموسوعة العربية الميسرة " اللون خاصية ضوئية تعتمد على طول الموجة، ويتوقف اللون الظاهري لجسم ما على طول موجة الضوء الذي يعكسه. " [23]

وهذا ما أكده تعريف علماء الفيزياء بقولهم: "اللون عبارة عن موجات ضوئية اهتزازية؛ بحيث تقصر أو تطول، وهو ليس مجرد زخرفة للعين، وإنَّما يمثل النور الذي يتجزأ إلى موجات تتباين طولا واهتزازا؛ بحيث تقترب من الأحمر كلما طالت، وتقترب من الأزرق كلما قصرت. " [24].

ويقول حسن عزت: " إن اللون يكمن في داخل الإنسان وليس في أي مكان آخر" [25] و " إن تركيب الضوء الطيفي تميزه العين بدرجات متفاوتة، وأن بعض الإشاعة في المنطقة المنظورة تبدو لها أكبر شدة وغيرها أضعف." [26]

ثم يذكر السبب في رؤية الألوان فيقول: "يعود الفضل إلى الخلايا المخروطية في شبكية العين هي فقط القادرة على التمييز بين الألوان." [27]

وهناك من يقول بأنَّه: " نتيجة إحساس العين بالموجات المختلفة، فحينما ينعكس الضوء على جسم ما فإنَّه يمتص بعض موجات هذا الضوء ويرد البعض الآخر، وهذا الجزء المردود يُؤثر في خلايا العين فتحس باللون وتدركه. " [28]

يقول أحمد مختار: "وللإحساس بالألوان شروط لابد من تحققها، بعضها يعود إلى عوامل داخليه في جسم الإنسان وتركيب أجهزة الإحساس فيه، وبعضها يعود إلى عوامل خارجية منها مقدار الضوء الواصل إلي العين، وطول موجته، وزاويته، ولونه. " [29]

وهو هنا يربط عملية الإحساس بالألوان بشروط داخلية موجودة في جسم الإنسان، وأخرى خارجية تتمثل في الضوء، وبناءً على هذه الأمور يتم إدراك الألوان.

فاللون ليس له أي حقيقة إلا بارتباطه بأعيننا التي تسمح بحسه وإدراكه، بشرط وجود الضوء.[30]

نستنتج ممَّا سبق أنَّ اللون في المعنى الاصطلاحي هو: كيفية خاصة بحاسة البصر وحدها دون غيرها، وهو يرى من خلال المخ عن طريق الشعاع الضوئي.

حضور ألفاظ الألوان ودلالاتها في شعر محمود سامي البارودي:

اللون مثل الموسيقى التي تريح الأذن عند سماعها، وهو يريح العين عند النظر إليه فهو قصيدة غناء، تأخذ من الطبيعة وتعبر عنها، ولا يقتصر تأثير اللون في الإبصار فحسب، بل يدخل في عالم أعمق من مجرد النظر إلى لون بعينه حتى يُؤثر في الأحاسيس أو تتأثر به، ويدخل شعورًا من نمط آخر إلى النفس وعالم الحس الذي يتأثر ويستجيب لما تراه العين، أو يقع في القلب، فكل لون يعني لنفس معينة معنى جديدًا غير مستقر في بقية أنفس البشر الآخرين.[31]

وقد حاول الشاعر محمود سامي البارودي تعميق الدلالة بإثراء معانيه بألوان مختلفة انطلاقًا من أهمية اللون في تشكيل الصورة الشعرية، ورغبة الشاعر في القيام بدور فعال تجاه وطنه ومجتمعه، وإصلاح مشاكله من خلال الكلمات الموحية المعبرة عن المشاعر والانفعالات، ما يؤكد الارتباط الوثيق بين الشاعر والطبيعة.

ومن الجيد أن نتعرَّض للبحث في الألفاظ اللونية في ديوان الشاعر، لتمثل هذه الدراسة محور الكشف عن المعنى الدلالي لكل لون من الألوان، حيث سَتُدرَسُ ألوان محددة، بشكلٍ مفصلٍ في هذا البحث.

أولًا ـ اللون الأبيض:

البياض: ضد السواد، يكون ذلك في الحيوان والنبات وغير ذلك ممَّا يقبله غيره، وقد قالوا بياض وبياضه، كما قالوا منزل ومنزله، والبياض من الناس: خلاف السودان، وبيض الشيء جعله أبيض، والأبيضان الماء والحنطة. (32)

" والأبيض هو أول الألوان البسيطة، فهو يمثل الضوء الذي ما كانت رؤية الألوان ممكنة من دونه؛ فكل الألوان متضمنة في اللون الأبيض." (33)

وقد ورد في العربية الكثير من الألفاظ الدالة على اللون الأبيض، وذلك للتعريف بدرجات البياض وصفاته فقالوا: أبيض ثم يقق ثم لهق ثم واضح ثم ناصع ثم هجان وخالص، ومنه قولهم رجل أزهر، وامرأة رعبوبة، شعر أشمط، وفرس أشهب، وبعير أهيس، وثور لهق، وكبش أملح، وثوب أبيض، وفضة يقق. (34)

وهو لون يرمز إلى الطهارة والعفة والنصر، كما يرمز إلى الاستسلام والموت، ولأنَّه محبب "يبعث على الأمل والتفاؤل والصفاء و التسامح ويدل على النقاء، كما يبعث على الود والمحبة، وعلى الرَّغم من أنَّ هذا اللون يحمل غالبًا الدلالات الإيجابية، إلَّا أنَّه يحمل في الوقت نفسه معنى يقود إلى التشاؤم والاقتراب من الخروج من الدنيا " .(35)

وهو عند الشعراء " الأكثر استخدامًا لأنَّه يقترن لديهم بالصفاء، والإشراق، ويبعث في نفوسهم الفأل والاستبشار بالطمأنينة فرأوه على حافة الأرض عندما تنبت، وضحكة الطلعة، وفي مداعبة النور للشمس، وتبسم السحاب بالبرق ولهذا كان اللون الأبيض أسخى الألوان إيحاء ". (36)

واللون الأبيض كثير في شعر البارودي، منه قوله:

أهيم بالبيض في الأغماد باسمة عن غرة النصر لا بالبيض في الكلل (37)

هام العاشق بمعشوقه: شغفه حبًا، وهيام الشاعر بالبيض: شدة تعلقه بها، والبيض في الشطر الأول: السيوف وفي الشطر الثاني: الحسان الجميلات من النساء، الواحدة بيضاء. وباسمة لامعة، مصقولة، وغرة النصر طلعته، مستعار من غرة الفرس وهي: " بياض في الجبهة ... والأغر من الخيل الذي غرته أكبر من الدرهم، وقد وسطت جبهته ولم تصب واحدة من العينين ... والأغر الأبيض من كل شيء. " (38)

ويقول الشاعر في وصف الثريا:

وترى الثريا في السماء كأنَّها حلقات قرط بالجمال مرصع

بيضاء ناصعة كبيض نعامة في جوف أدحي بأرض بلقع (39)

شبه الشاعر الثريا وهي: مجموعة كواكب معروفة لامعة في السماء أولًا بالقرط المرصع بالجوهر، ثم شبهها في بياضها ببيض النعامة، وقد وضعته في الصحراء بأرض ملساء خالية لا شيء فيها.

وناصعة اسم فاعل نعت للخبر بيضاء للدلالة على ثبوت الصفة، إذ إنَّ اللون الأبيض كثيرًا ما يوصف بأنَّه ناصع.

وقال في الغزل:

لا ترهبي قول الوشاة فإنهم قد أحسنوا في القول حين أساءوا

زعموك شمسا لا تلوح بظلمة ولقولهم عندي يد بيضاء (40)

أراد الشاعر إزالة الخوف من محبوبته، وتجديد الثقة فيه، إذ يقول لا ترهبي من قول الوشاة أي الشائعين للكلام، لأنَّهم كلما حاولوا إساءته وذكره بسوء يحسنون فيه. ومحبوبة الشاعر كالشمس تجلو الظلام وتبدده بجمال طلعتها، واليد النعمة والصنيعة، وبيضاء: ظاهرة ومشهورة.

ثانيًا ـ اللون الأسود:

السواد: " نقيض البياض؛ سود وساد واسود اسودادًا واسواد اسويدادًا، ويجوز في الشعر اسوأد، تحرك الألف لئلَّا يجمع بين ساكنين؛ وهو أسود، والجمع سود وسودان. وسوده: جعله أسود، والأمر منه اسوادد، وإن شئت أدغمت، وتصغير الأسود أُسيد، وإن شئت أُسيوِد أي قد قارب السواد. " (41)

و" اللون الأسود من أشد الألوان قتامة، وفي الحقيقة هو عبارة عن نفي اللون الأسود يمثل الحدود المطلقة التي بعدها تتحقق الحياة، ولذلك فهو يمثل العدم والانطفاء، والأسود هو النهاية التي بعدها لا يوجد شيء " (42)

وقد دلت على اللون الأسود في اللغة ألفاظ كثيرة ووصفوا تدرجه فقالوا: " أسود وأسحم ثم جون وفاحم وحالك وحانك ثم حلكوك و سحكوك ودجوجي ثم غربيب وغدافي وخداري أسود و أسحم ثم جون وفاحم، ثم حالك ثم حلكوك و حالك و سحكوك، ثم خذاري و دجوجي ثم غربيب وغذافي." (43)

وقد " جاء هذا اللون في المرتبة الأولى من قائمة الألوان عند علماء الأنثروبولوجيا، ويرى كثير من علماء الألوان أن الأسود مع الأبيض هما أول لونين وضعت لهما ألفاظ لونيه في معظم لغات العالم. " (44)

واشتهر اللون الأسود في الأغلب بأنه: " رمز الحزن والألم والموت كما أنَّه رمز الخوف من المجهول والميل إلى التكتم ولكونه سلب اللون يدل على العدمية والفناء. وقد كان العرب يتشاءمون حتى من مجرد النطق بهذا اللون أو أحد مشتقاته. " (45)

وللون الأسود حضور كبير في الشعر العربي، بجميع عصوره ومراحله، وقد اختلف الشعراء في إعطاء دلالة ثابتة للون الأسود، فاختلف مدلول هذا اللون من شاعر إلى آخر كل حسب الموضوع، الذي يعالجه، وذلك لأنَّ هذا اللون لا يستقر على حالة واحدة، ويتغير وفقًا للظروف المكانية والزمانية. (46)

وفي هذا المبحث سوف نسعى إلى تقصي بعض مفردات الأسود، في ديوان محمود سامي البارودي.

قال في الغزل:

ليس لي غير خالك الحجر الأسـ ود فـي كـعبـة المحـاسن قبـلـة (47)

الخال: شامة سوداء في البدن، وقيل: هي نكتة سوداء فيه. (48)والكثير الغالب المشهور أن يطلق الخال على شامة الخد، وقد يكون خلفه، وقد تضعه الحسناء للتجمل والزينة. جعل البارودي محاسن وجه الحبيب كعبة يستقبلها عشاقه، كما يستقبل المصلون البيت الحرام، وفتن فتونا بشامة سوداء في خده، فولى وجهه شطرها وتعلق بها بصره، كأنها الحجر الأسود في الكعبة المشرفة، ينظر إليه الطائف بها ويحرص على تقبيله. (49)

وقال البارودي يذكر مقامه في (سيلان) ويتشوق إلى الأهل والأوطان:

ردوا علي الصبا من عصري الخالي وهـل يـعـود سـواد اللمـة البالـي؟ (50)

يتمنى الشاعر أن يعود إلى زمن الصبا ومرح الشباب. ويتساءل مع أنَّه يعرف أن ذلك ضرب من المستحيل فما ذهب من العمر لن يعود ولكنه الشوق والذكريات، والشاعر كنى بسواد اللمة البالي عن الصبا في عصره الخالي؛ لأن سواد الشعر من مظاهر الحداثة والصبا، فإذا ذهب ذهب معه الشباب ومرحه ولهوه، وحل محله بياض الشيب، وهموم الهرم، ومتاعب الشيخوخة.

وقال في سوء الخلق:

سـود الخلائق دلاجون ما طبعـو على المحارم هداجون في الظلم (51)

الخلائق جمع الخليقة، والمقصود بها الطبيعة التي خلق المرء عليها. ويعبر باللون الأسود في مثل هذا المقام عن الشر والقبح والسوء. فسود الخلائق: طباعهم سيئة قبيحة، مرذولة ممقوتة. يسيرون عامة الليل. وهو في مقام الهجاء. كناية عن سوء السلوك.

والمقصود بالمحارم كل ما حرمه الله تعالى، وما لا يحل انتهاكه من عهد أو ميثاق، أو نحوهما.

ثالثًا ـ اللون الأحمر:

اللون الأحمر من أوائل الألوان التي عرفها الإنسان في الطبيعة، " فهو من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس واشتعال النار والحرارة الشديدة وهو من أطول الموجات، الضوئية."[52]

وهو "من الألوان المتوسطة ويكون في الحيوان، والنبات، وغير ذلك، يقال: أحمر الشيء احمرارًا إذا لزم لونه فلم يتغير من حال إلى حال، والأحمرانِ: الزعفَران والذهب، ويقال: موتٌ أحمر، وميتَةٌ حمراء، أي: شديدة، وسنة حمراء أي: شديدة. ويقال: أَهلك النساء الأَحمرانِ، يعنُون الذَّهب والزعفَران، أي أَهلكهن حب الْحلَى والطِّيب، وأَهلك الرجالَ الأَحمرانِ: اللَّحم والْخَمر، والحسن أحمر، يعني أَن الحسن في الْحمرة. فهو لون اوروستقراطى وصفوا به قباب الملوك، وملابسهم، كما وصفوا به لون النهار عند مغيب الشمس. " [53]

وفي العربية وردت العديد من الألفاظ التي تعبر عن اللون الأحمر، فاستخدم العرب أحمر ناصع ويافع وزاهر ويانع ليعبروا عن الحمرة الناصعة الصافية، كما استخدموا ألفاظًا تعبر عن اختلاط الأحمر وغيره من الألوان: فالحمرة التي تضرب إلى البياض قيل لها الصهبة، وقيل الشربة للبياض المشرب بحمرة، وقيل الدبسة للذي يجمع بين السواد والحمرة. [54]

كما أن له أقسام عديدة كما يقال: " ذهب أحمر وفرس أشقر، ورجل أقشر، ودم أشكل، ولحم شرق، وثوب مدمى، ومدامة صهباء. " [55]

وقد اقترنت دلالته عند العرب في المجمل العام بالمعنى السلبي الموحي بالقتل، وسفك الدماء، الذي ينتهي إلى الزوال، والرحيل، لذلك ترسخت النظرة العامة تجاهه، بالنظرة التشاؤمية. [56]

ومن دلالات هذا اللون أيضًا ارتباطه بالنار، فقد عد رمزًا لجهنم في كثير من الديانات، حيث توصف جهنم بأنها حمراء. [57]

وقد تناثرت ألفاظ الأحمر في العديد من ثنايا قصائد محمود سامي البارودي، من ذلك قوله ردًّا على قصيدة للأمير (شكيب أرسلان):

ضمت جوانحه إليك رسالة عنوانها في الخد حمر الأدمع [58]

الجوانح ضلوع الصدر وهي تحتوي فؤاد الإنسان وتحميه، وأراد الشاعر بالرسالة: الصبوة والحب والهوى والصبابة. حيث شبه الحب بالرسالة المحفوظة بين ظلوعه، والتي كان عنوانها ظاهرًا من وصف الدموع الظاهرة على الخد بالحمرة، وهذا كناية عن الخجل. ممَّا يؤكد صلة الدموع بالدم.

ويقول البارودي في الخمر:

حمراء دار بها الحباب فصورت فلكـا تحف سمـاءه الأجـرام [59]

خمرة الشاعر لونها أحمر، والحباب الفقاقيع التي تعلو على وجه الماء أو الخمر. والأحمر الفقاعي هو الذي يخلط حمرته ببياض. [60] فالخمر لشدة لمعانها، وفرط تلألؤها. يضطرب نظر الناظر إليها، ولا تثبت العين عند رؤيتها. وكأنها فلك تطوف به الكواكب والنجوم.

ويقول عن شجاعة من يقاتلون معه من الجنود:

وفتية كأسود الغاب ليس لهم إلا الرماح إذا احمر الوغى أجم [61]

يقول البارودي إنَّه يقاتل إلى جانبه فرسان بسلاء شجعان كالأسود، لا يحذرون الموت بل يقبلون عليه في غبطة واندفاع. ويظهر اللون الأحمر كناية عن استحرار القتال، وشدة البأس، وكثرة ما يسيل من دماء الجرحى والقتلى.

رابعًا ـ اللون الأخضر:

الخضرة من الألوان: ويكون ذلك في الحيوان والنبات، كما أطلقوا لفظ الخضراء على السماء، والمياه ومن دعائهم (خضرًا لك ومضرا) أي سقيًا ورعياً. [62]

هو لون الطبيعة " منعش رطب مهدئ يوحي بالراحة، والأمل، والتفاؤل، والجمال، والبهجة، إذ يضفي بعض السكينة على النفس، ويسمح للوقت أن يمر سريعًا، ويساعد الإنسان على الصبر؛ لذا استعمل في معالجة بعض الأمراض العقلية، مثل: الهستيريا، وتعب الأعصاب". [63]

وهو من الألوان التي ترمز إلى السلام، لارتباطه بشكل مباشر " بأشياء مهمة في الطبيعة أصلاً، كالنبات، والأحجار الكريمة، ثم جاءت المعتقدات الدينية وغذت هذه الارتباطات بالخصب، الذي توحي به خضرة النبات الغض الرطب. " [64]

والأخضر من أكثر الألوان وضوحا في الدلالة، وقد وضعت العربية لهذا اللون ألفاظًا أساسية، تحدد خصائصه من حيث النصاعة والقتامة، وتحدد مدى نقائه أو اختلاطه بالألوان الأخرى، فقالوا: " أخضر وأكدوا بقولهم: أخضر ناضر. " [65]

وفي العقيدة يمثل الأخضر الإخلاص والخلود، لأنَّه رمز من رموز الجنة ونعيمها، وقد وصفها سبحانه وتعالى بالخضرة في قوله تعالى: [مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ } (66)

لقد حظي اللون الأخضر- في المعجم الشعري للبارودي - بمساحة واسعة، حيث تجلى في وصف جمال الطبيعة الخضراء البهية، واتخذها رمزًا للحب والعطاء والبهجة. ومن نماذجه قول الشاعر:

لا تبتئس من محنة ساقها القضا إليك فكم بؤس تلاه نعيم
فقد تورق الأشجار بعد ذبولها ويخضر ساق النبت وهو هشيم (67)

استخدم الشاعر اللون الأخضر هنا كرمز من رموز الأمل وعودة حياة الإنسان إلى مسارها الطبيعي بعد تعرضه للحوادث والمحن. ففي اخضرار ساق النبت وعودة الأوراق بعد ذبولها حياة جديدة.

وقال وهو بسرنديب:

يا هل أراني بذاك الحي مجتمعا بأهل ودي من قومي وأشياعي
وهل أسوق جوادي للطراد إلى صيد الجآذر في خضراء ممراع (68)

يتمنى الشاعر وهو في غربته العودة إلى دياره المصرية، وملاقاة أتباعه وأنصاره، والعودة إلى حياته الطبيعية التي كانت مليئة باللعب والمغامرات في مطاردة الوحش وصيده. وجاء اللون الأخضر في وصف الأرض بالخضرة وهو تعبير طبيعي فالأرض الخصبة مليئة بالصيد، وهي أيضًا رمز للحياة الحرة الكريمة.

وقال في ذكر الحب والغرام:

هم أباحو الهوى حريم فؤادي وأذلوا للعاذلين خطامي
أتمناهم ودون التلاقي قذفات من لجة أخضر طامي (69)

يقول الشاعر كان قلبي محرما فأهدروا حرمته، وجعلوه حلالًا مباحا للحب والغرام، يستولي عليه ويحتله، ويجعله عرضة لذل العاذلين والحاقدين. وهو يتمنى لقاء أحبته ووصلهم وإكمال كل ما بقى من حياته بكل ملذاتها بقربهم. وعبر عن ذلك بذكر اللج الذي يمثل معظم البحر أو عرضه ووسطه، فالبحر اللجي: الواسع الزاخر العظيم، المتموج، وقد وصف هذا البحر باللون الأخضر دلالة على صفائه ونقاوة مائه.

خامسًا ـ اللون الأصفر:

" الصَّفْرة من الألوان معروفة، تكون في الحيوان والنبات، وغير ذلك مما يقبلها، وفي الماء أيضًا، والصفرة أيضا السواد، لذا سميت العرب سود الإبل صفرا، وصفر

الثوب صبغه بصفرة، والصفراء القوس، والصفر داء في البطن يصفر منه الوجه، ويقال إنَّه لفي صفرة للذي يعتريه الجنون إذا كان في أيام يزول فيها عقله، لأنهم كانوا يمسحونه بشيء من الزعفران. (70)

وفي العربية توجد ألفاظ كثيرة توحي بهذا اللون مثل: " الذهب تسميه العرب الصفراء والأصفر، ومثل الزعفران والورس والعسجد والحصى والرمل واللهب " (71)

وعن اختلاط الأصفر بغيره من الألوان قالوا: " أكهب للصفرة تخالطها حمرة، وأصحم للصفرة يخالطها سواد. " (72)

واللون الأصفر: من الألوان الساخنة التي لا توحي بدلالات ثابتة وذلك لارتباطه بأشياء طبيعية مختلفة كالشمس والذهب والطيب، وبعض الثمار وهي أمور توحي بالخير والجمال والتقديس. (73)

كما ارتبط اللّون الأصفر بالمرض والذبول، " وهي دلالة سلبية لأنَّها تعطي إحساسا قهريا بالذبول والاعتلال وربما الموت. " (74)

ومن الأمثلة التي تدل على حالات التغير اللوني في الأصفر، قوله تعالى:{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (75)

وورد ذكر الأصفر في بعض المواضع في شعر البارودي، يمكن عرضها على النحو الآتي:

قال في الخمر:

يا رب ليل بت أسقى به مشمولة صفراء كالورس
كأنها في كأسها شعلة مقبوسة من كوكب الشمس (76)

يشبه الشاعر الخمر في لونها الأصفر بنبات الورس، فتبدو لامعة في كأسها وكأنها شعلة مقبوسة من كوكب الشمس. وقد أضفى اللون الأصفر عليها منظرا محببا يزيد من شهية شاربها.

قال يصف جواده:

بمضمر أرن كأن سراته بعد الحميم سبيكة من عسجد (77)

يصف البارودي جواده بأنه خفيف اللحم، معد للسباق، نشيط خفيف سريع العدو. ويدخل اللون الأصفر في وصف فريد لظهر الجواد وقد اختلط فيه الأصفر بالعرق فظهر في لمعانه مثل سبيكة من ذهب.

وقال في صفات الحاقدين:

صفر الوجوه من الأحقاد تحسبهم وهم أصحاء في درع من السقم [78]

استحضر الشاعر اللون الأصفر في وصف بعض الناس ليكون رمزًا للحقد والعداوة فتراهم وهم أصحاء من جراء تلونهم واصفرار وجوههم، وكأنَّهم في حال من السقم والمرض.

سادسًا ـ اللون الأزرق:

الزرقة: هي البياض حيثما كان، والزرقة خضره في سواد العين، وقيل هو أنَّ يتغشى سوادها بياض، وزرق زرقًا فهو أزرق وأزرقي، ونصل أزرق بين الزرق شديد الصفاء، وتسمى الأسنة زرقًا للونها، والزرقاء الخمر، وماء أزرق صاف، والزرقم الأزرق الشديد الزرق، والزرق شعرات بيض في يد الفرس أو رجله. [79]

وهو لون متعدد الدلالات ارتبطت دلالاته حسب تدرجاته، " فالأزرق الفاتح يعكس الثقة والبراءة والشباب، أما القاتم منه فهو دليل الخمول والكسل والهدوء والراحة." [80]

إنه لون السماء والماء، ولهذا علاقات نفسية واعتقادية كثيرة ومتعددة، فهو منعش وقادر على خلق أجواء خيالية، ويضفي جوا من البرودة على المحيط، وقد استعمله العرب في الوشم. [81]

وهو ينقلنا " إلى عالم من الصفاء والشفافية، وغالبا ما تعاملت هذه الشفافية مع مفردات الواقع المادي، وغالبا أيضا ما يتصل بعالم السماء والأرض من ماء المحيطات والبحار وغيرها من أمكنة، ومع أن السمة الغالبة للأزرق تحمل معنى الصفاء والامتداد، إلا أنَّه يخرج إلى دلالات متعددة منها ما يدخل في الموت والعداوة ومنها ما يدخل عالم الحزن والضياع والكآبة ". [82]

واللون الأزرق من الألوان قليلة الاستعمال عند العرب القدامى وكانوا يخلطون بينة وبين الأخضر والأبيض. [83]

وهو من أقل الألوان حضورًا في الشعر العربي بجميع عصوره، ولم يرد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة في قوله تعالي: من سورة طه { يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}. [84]

كما أنَّه قليل جدًا في شعر البارودي بصفة خاصة، فلا يتعدى بضعة أبيات ومن ذلك: قوله في الغزل:

حاطت به الفرسان حور المها يا من رأى الربرب في الفيلق

من كل هيفاء كخوط القنا بلحظة كاللهذام الأزرق [85]

وصف الشاعر محبوبته بأنها هيفاء رقيقة الخصر، وضامرة البطن كالغصن الناعم في اللين والمرونة، والنعومة، كما أنها تشبه الرمح في استواء قامتها واعتدالها، واستحضر اللون الأزرق في تشبيه نظرة المحبوبة الفاتنة والساحرة بالسنان الأزرق القاطع، وهو تشبيه صائب، لأنَّ الزرقة من الصفات المستحسنة في الأسنة والنصال، الدالة على جودتها.

وقال في وصف جواد:

زرق حوافره سود نواظره خضر جحافله في خلقه ميل (86)

خلط الشاعر بين الأزرق والأسود والأخضر في تصويره لهيئة جواده، فهو أزرق الحوافر، أسود النواظر، أخضر الجحافل، وهذه الأشياء من الصفات المحببة في وصف الجياد.

وهذا الخلط مقبول بين هذه الألوان عند العرب، كما أشرنا في تقديم اللون الأزرق، فهو لون السماء والماء والوشم، كما أنَّ معظم الألوان في غمقها ميل إلى السواد.

ويقول الشاعر في موضوع آخر:

مالت خمائله بخضر غصونه وصفت موارده بزرق جمامه (87)

هذا وصف رائع لوادي جميل، أرضه خصبة، وأشجاره كثيرة ومجتمعة ملتف بعضها على البعض الآخر حتى لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه. كما استخدم الشاعر اللون الأزرق في وصف مياه هذا الوادي، وهذا دليل على غزارتها ونقاوتها وصفائها.

سابعًا ـ التعدد اللوني:

وفيه يعمد الشاعر الرسام إلى حشد القصيدة اللوحة بأكثر من لون واحد، فيقدم لنا بذلك مشهدًا لونيًا يعتمد على ألوان عديدة متناسقة، وهنا نتذكر قول أرسطو" : إنَّ الألوان تتواءم كما تتواءم الأنغام بسبب تنسيقها المبهج " (88)

فلا شك أن للألوان دور كبير في تشكيل جماليات التعبير والتصوير الفني، فهي ترسم معاني وصور تدل على الإبداع القوي، وتبرز مقدرة الخيال على الجمع بين تلك الألوان في لوحة قوامها الوحدة والانسجام، والجمع بين المتشابهات وتوحيد المتناقضات، ذلك أن " التداخل في التركيب له شأن عظيم ومكان من الفضيلة مرموق لأن الصورة مع هذا المزج تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكلين يصيران إلى شكل ثالث ". (89)

والجمع بين الألوان في صورة واحدة منه ما ترتاح له العين، وتنبسط، ومنه ما تضيق به النفس، ومنه ما يؤدي إلى التقزز، ولابدَّ لكل إحساس من

هذه الأحاسيس من سبب. فالشيء المركب الذي انسجمت أجزاؤه التي تألف منها هو الذي يفرح وغبر ذلك هو المسيء المقبض، لذلك فإنَّ الانسجام أساس من أسس الجمال، وكذا الألوان قد تجتمع على جمال وقد تجتمع على قبح، ومن الألوان المنسجم، ومن الألوان المتنافر. " (90)

يقول البارودي:

وقد ماجت الأغصان بين يد الصبا كما رفرفت طير بأجنحة خضر
كأن الندى فوق الشقيق مدامع تجول بخد أو جمان من تبر
إذا غازلتها لمعة ذهبية من الشمس رفت كالشرار على الجمر
ففي كل مرعى لحظة وشي ديمه وفي كل مرمى خطوة أجرع مثري
مروج جلاها الزهر كأنها سماء تروق العين بالأنجم الزهر (91)

جمع الشاعر في هذه الأبيات بين الكثير من الألوان في لوحة رائعة الجمال، فهناك اللون الأخضر في المروج وأجنحة الطيور، واللون الفضي لون قطرات الندى فوق الأعشاب والزهور، وهناك الأحمر بدرجات متفاوتة في الشقيق، والجمان، والجمر وشرره. كما يظهر اللون الذهبي في لمعة الشمس وبريق النجوم. بالإضافة إلى العديد من الألوان الأخرى التي نستشفها من البرقشة على المروج الخضراء المزهرة.

ثامنًا ـ التداخل والتضاد اللوني بين الأبيض والأسود:

للأسود ـ في التركيب الشعري ـ تداخل مع الألوان الأخرى، من أهمها: الأبيض، بوجهيه المباشر، والضمني، وبهما يتضح معنى " فني فوق صور تراسل الحواس، وتبادل المدركات، وفوق التجسيد، أو التشخيص، أو التضاد، وفوق اهتمام الشاعر بلون ما، لأسباب نفسية خاصة؛ لأن الأجدى من ذلك الوقوفُ على تنوع الإيحاءات المثارة من اللون، إثارة فنية مفيدة، وإشارتها إلى رموز، تتصل صورتها الجزئية، بالصورة الكلية في النص كله، ثم تحقيق التلاؤم بين إيحاء هذه الألوان، وما يقيده المعجم الشعري للنص كله، حتى تقوم الألفاظ سندًا لدلالة اللون. " (92)

والتضاد: هو" الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيت من القصيدة مثل الجمع بين السواد والبياض" (93)

والتضاد اللوني: شكل من أشكال التضاد، وهو يتحقق بين الألوان المتكاملة، ومبعث الانسجام فيه أن التقابل فيه يؤدي إلى التوازن، حيث يستميل كل من المتضادين الآخر

حين يوضع إلى جانبه، كما أن اللونين المتضادين يقوي كل منهما الآخر عن طريق إبراز التباين.(94)

إنَّ صورة التضاد اللوني في الشعر يتجاور فيها اللونان دون أن يختلطا، بل يظل كل لون قائم بذاته، ومن اجتماعهما معا يقدم الشاعر لوحة لونية، تلفت نظره، ويعبر عنها في لغتها ، ويحولها إلى صورة أدبية يتغنى بها الشعراء والأدباء. (95)

ومن أمثلة التداخل اللوني بين الأبيض والأسود في شعر البارودي ما يلي:

قال في الغزل: متحسرا على أيام الشباب:

أي قنـاع مـن شباب سـرا؟ وأي ثوب من نعيم نضـا؟

قد بيض الأسـود من لمتي يا ليتـه سـود مـا بيضـا (96)

شبه الشاعر سواد شعر رأسه ولحيته في عهد الشباب بالقناع الذي تغطي به المرأة رأسها ومحاسنها، وهو غالبًا ما يكون باللون الأسود، وقد كشفه وخلعه الزمن مع تقدم العمر، فالصورة الأولى تمثل الشباب، والصورة الثانية تمثل الكبر والعجز، وقد تداخل فيها الأبيض مع الأسود في لون المشيب.

ويقول البارودي في وصف شجاعته:

أغير على الأبطال والصبح أشهب وآوي إلـى الصفيان والليـل أدهـم (97)

يقول الشاعر بأنَّه يغير على أعدائه في ضوء الفجر، ويذهب إلى رفاقه ليلًا ليتسامر معهم. وهذا كناية عن شدة بأسه وشجاعته فهو لا يعرف الخوف.

والتداخل اللوني في هذا البيت يتمثل في صورة الفجر وقد خالطته بقايا ظلام الليل فصار أشهب، وصورة لبداية الليل وقد امتزج ببقايا ضوء النهار فصار أدهم.

ومن أشكال التضاد اللوني بين الأبيض والأسود:

قول الشاعر في الغزل:

وبيضاء ريا الردق مهضومة الحشـا يقل ضحـاهـا جنـح أسـود فـاحـم (98)

يتغزل الشاعر بفتاة بيضاء يشرق جسمها ووجهها إشراقة الشمس، ويبهج بهجتها، ويزينها فوق هذا كله شعر شديد السواد كأنه جنح الليل البهيم، وقد جمع بين اللونين الأبيض والأسود رغم تضادهما في بيت واحد، وخرج بصورة رائعة الجمال.

وقال في وصف ناقة من النعمانيات:

هتكت بهـا سـتـور الليـل حـتـى خرجت من السواد إلى البياض (99)

يصف البارودي ناقته بسرعة السير، والدأب والجد، فكأنها من شدة سرعتها تهتك حواجز الظلام، وقد أراد بالسواد: ظلمة الليل، وبالبياض ضوء النهار، فجمع بين

الأبيض والأسود في صور متتابعة، وفي هذا كناية عن شدة السير، وكأنَّها تسابق الليل كي تفوز بنور الصباح.

وهكذا تبينت لنا قدرة الشاعر محمود سامي البارودي في خلق التعبير الشعري من خلال الألوان التي عززت بدورها من فاعلية هذه النصوص بقيم جمالية جديدة تزيد من مستويات فاعليتها الفنية والتعبيرية، وتضاعف من حجم حضورها المؤثر في منطقة الاستجابة والتلقي، بتوظيفه المتميز للألوان والاستفادة من رموزها في إثراء التجربة الشعرية بالدلالات النفسة والمجازية، كما أكدت وعي الشاعر بما يمثله عالم الألوان من أهمية في الصياغة الشعرية.

الخاتمة:

توصلت الدراسة الحالية إلى النتائج التالية:

1 ـ يعدُّ اللون بنية أساسية مهمة في تشكيل القصيدة الشعرية، فهو يحمل قدرًا كبيرًا من العناصر الجمالية، ويعطي أبعادًا فنية للعمل الشعري.

2 ـ شكل اللون عنصرًا رئيسًا في الصورة الشعرية للبارودي.

3 ـ عمد البارودي إلى توظيف الألوان في شعره بدلالات حملت مفاهيم تعارف عليها العرب وتعايشوا معها.

4 ـ يتحدد الحضور اللوني وتباينه من نص إلى آخر تبعًا للتصورات التي بنى عليها الشاعر دمج اللون بين عناصر القصيدة وتشكيلاتها.

5 ـ كان التجلي اللوني في نصوص البارودي يعبر عن شخصية الشاعر المتعلقة بأرضه ومحيطه الخارجي الذي ملك كيانه وروحه، وجاب مخيلته في صور لونية موحية.

6 ـ مزج البارودي بين لونين أو أكثر ممَّا جعل الدلالات أكثر اتساعًا.

الهوامـــــــــــــــش:

1 ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 12 ،2002م، م 15، ج 7، ص171.
2 ـ الأدب العربي وتاريخه، محمود مصطفى، طبعة مصطفى الحلبي، ط 1، مصر، 1937م، ج 3، ص 114.
3 ـ الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، د ت، ص 83.
4 ـ ديوان البارودي، تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة، د ط، بيروت، 1998م، ص 10.
5 ـ ينظر البارودي رائد الشعر الحديث، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1977م، ص 44، 45.
6 ـ ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، مصدر سابق، ج 7، ص 171.
7 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 29.
8 ـ ينظر المصدر السابق، ص 30.
9 ـ ينظر نفسه، ص 5 ـ 13.
10 ـ معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2003، باب اللام، ص 111.
11 ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط 1، 1972م، ص 223.
12 ـ جمهرة اللغة، ابن دريد ، مكتبة الثقافة الدينية، د ط، د ت، ج 3، ص 167.
13 ـ المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ج 1، ص 103.
14 ـ المصدر السابق، ص 49.
15ـ فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 1، 1998م، ص 120.
16 ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997م ، مادة: (لون).
17 ـ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، شرح علي أبو ملجم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط 2، 1992م، ج 1، ص 192.
18 ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1979م، مادة لون ص 176.
19 ـ معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، زين الخويسكي، مكتبة لبنان، ط 1، 1929م، ص 179.
20 ـ رسائل الكندي الفلسفية، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الفكر العربي، ج 2، 1953م، ص 65.
21 ـ آراء أهل المدينة الفاضلة، أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ص 44.
22 ـ موسوعة الشروق، مجموعة من الباحثين، دار الشروق، القاهرة، 1994م، م 1، ص 260.
23 ـ الموسوعة العربية الميسرة، غربال وآخرون، دار النهضة، لبنان، د ط. 1986م، ج 2، ص 1581.
24 ـ الألوان، كلود عبود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2013م، ص 12.

25 ـ الظواهر البصرية والتصميم الداخلي، حسن عزت أبو جد، دار الأحد، بيروت، لبنان، 1971م، ص 60.
26 ـ المصدر السابق، نفس الصفحة.
27 ـ نفسه، نفس الصفحة.
28 ـ الرسم واللون، محيي الدين طالو، مطبعة الشام، ط 7، دمشق، سوريا، 1993م، ص 163.
29 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 1، 1982م، ص 91.
30 ـ مبادئ التصميم اللون، عدلي محمد عبد الهادي، مكتبة المجتمع العربي، عمان، الأردن، ط 1، 2006م، ص 13.
31 ـ ينظر اللون ودلالته في الشعر " الشعر الأردني نموذجا"، ظاهر محمد هزاع الزواهرة، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2008م، ص 12، 13.
32 ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (بيض).
33 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 111.
34 ـ يُنظر: فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، مصدر سابق، ص 121.
35 ـ اللون ودلالته في الشعر " الشعر الأردني نموذجا "، ظاهر محمد هزاع الزواهرة، مصدر سابق، 2008، ص77.
36 ـ الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1984م، ص 221.
37ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 397.
38 ـ قاموس الألوان، عبد الحميد ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1989م، ص 184.
39ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 332.
40 ـ المصدر نفسه، ص 40.
41 ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (سود).
42ـ صورة اللون في الشعر الأندلسي، دراسة دلالية وفنية، حافظ المغربي، دار المناهل، بيروت، لبنان، ط 1، 2009 م، ص 230.
43 ـ فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، مصدر سابق، ص 118.
44 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 195 .
45 ـ نفسه، ص 186، 201.
46 ـ اللون ودلالاته في الشعر " الشعر الأردني نموذجا "، ظاهر محمد هزاع الزواهرة، مصدر سابق، ص 94.
47 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 494.
48 ـ قاموس الألوان، مصدر سابق، ص 73.
49 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 494.
50 ـ نفسه، ص 445.
51 ـ نفسه، ص 619.
52ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 63.
53ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (حمر).
54 ـ ينظر فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، مصدر سابق، ص 128 .

55 ـ نفسه، ص 120.
56 ـ ينظر موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، محمد عجينة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ج 2، ص 201.
57 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 164.
58 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص331
59 ـ نفسه، ص 534
60 ـ قاموس الألوان مصدر سابق، ص 73.
61 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 601.
62ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (خضر).
63ـ نظرية اللون، يحيى حمودة، دار المعارف، مصر، د ط، 1970م، ص 136.
64ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 185.
65ـ فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، مصدر سابق، ص 56.
66ـ القرآن الكريم بالرسم العثماني، رواية حفص عن عاصم، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، سورة الرحمن، الآية 76.
67 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 596.
68 ـ نفسه، ص 340.
69 ـ نفسه، ص 549
70 ـ ينظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (صفر).
71 ـ اللغة واللون، أحمد عمر مختار، مصدر سابق، ص 74.
72 ـ فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، مصدر سابق، ص 128.
73 ـ ينظر اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 214.
74 ـ صورة اللون في الشعر الأندلسي، دراسة دلالية وفنية، حافظ المغربي، مصدر سابق، ص 199.
75 ـ سورة الروم، الآية 51.
76 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 288.
77 ـ نفسه، ص 131.
78 ـ نفسه، ص 620.
79 ـ ينظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم منظور الإفريقي المصري، مصدر سابق، مادة (زرق).
80 ـ ينظر نفسه، مادة (زرق).
81 ـ ينظر، نظرية اللون، يحيى حمودة، مصدر سابق، ص 146.
82 ـ اللون ودلالاته في الشعر " الشعر الأردني نموذجا "، ظاهرة محمد هزاع الزواهرة، مصدر سابق، ص 60.
83 ـ سورة طه، الآية 102.
84 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 183 .
85 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 366.
86 ـ نفسه، ص 471.
87 ـ نفسه، ص 614.

88 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، 136.
89 ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الاسكندراني، مسعود، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م، ص 155.
90 ـ معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، مصدر سابق، ص أ ـ م.
91 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق ص 196.
92 ـ الصورة الشعرية والرمز اللوني، يوسف حسن نوفل، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 137.
93 ـ الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، علق حواشيه وضبط نصه مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط 1 ،2008 ، ص 241.
94 ـ اللغة واللون، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص 138.
95 ـ ينظر صورة اللون في الشعر الأندلسي، حافظ المغربي، دراسة دلالية وفنية، مصدر سابق، ص 349.
96 ـ ديوان البارودي، مصدر سابق، ص 300.
97 ـ نفسه، ص 606.
98 ـ نفسه، ص 518.
99 ـ نفسه، ص 304.